الى اللبنانيين من لبناني وطني

بقلم الاب لامنس اليسوعي

النادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت عادة حميدة يتبعها منذ نشأته ؛ فيعدّ ، كل سنة ، سلسلة من المحاضرات النفيسة يلقيها رجال شُهد لهم بالمقدرة والاختبار . وقد تختلف مواضيع هذه المحاضرات ، ولكنها تدور كلها حول البلاد وما فيها من مقدّرات ، وما يلزمها من تحسينات . ومن افضل المحاضرات التي أُلقيت ، السنة الفائتة ، محاضرة فرنسوية للسيد ميشال شيحا القاها في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٠ ودعاها « مشكلاتنا واحكامنا المتسرّعة فيها ». ولم اتمكن ، لسوء الحظ ، من سماعها لعارض مؤسف اقعدني مدة طويلة . على ان النادي احسن صنعاً بنشرها على حدة ، فقرأتها بوافر المسرّة ، ووددت ان يشاطرني جميع قرائنا الكرام الفائدة الجزيلة التي نالتني منها .

واول ما يبدو لنا جمال الاسلوب ، وإناقة الانشاء . فان المحاضر يستعمل اللغة الفرنسوية بقدرة فائقة ، ويستغلّ ببراعة وحذق جميع طرق الفصاحة . ومع انه ليس اصعب من اعطاء النصائح الا اقناع السامعين بوجوب قبولها ، فان السيد شيحا يعرضها بلطف وظرف ، حتى ان الحاضرين ينصاعون الى كلامه بكل ارتياح ، وقد عرفوا فيه الرجل المخلص والوطني الغيور الذي طالما فكّر في اهمية وطنه السياسية والاقتصادية ، وفي قيمة عوامل هذه الاهمية ؛ فيشعرون انهم امام الخطيب الذي وصفه شيشرون قائلاً « انه رجل شريف يعرف ما يقوله لنا ، ويعرف مواقع التعبير عنه . »

والخطيب ينصح لنا (ص ٥) «بان نقتني كرة تمثل الارض ، وان ننظر اليها بدقة ومواظبة ، وان نجعل منها موضوع تأملاتنا.» وما الفائدة من هذه التأملات ؟ فائدتها ان نضع حدًّا لتأسفاتنا على فقر لبنان المزعوم . فنطلع ، بواسطة هذه التأملات الجغرافية ، على ان لبنان واقع في نقطة من اهمّ النقاط الحيويّة في العالم الاقتصادي ، وعلى طريق من اهم طرق العالم القديم.« فان كل آسية الجنوبية ، اي نحو سبع مائة مليون من البشر ، اذا ما شاؤوا ان يصلوا الى البحر المتوسط ، وهو قلب العالم القديم ، فلا يمكنهم الا ان يمرّوا في بلادنا. قد يمرّون بانحراف قليل الى الشمال او الى الجنوب ، وليس في ذلك كبير امر ، لان آسية بجملها ، آسية اللجبة ، التي تمتدّ من خليج العجم الى بحر اليابان ، عند ما يزداد استعمالها للقطارات الحديدية وللسيارات وللطيارات ، وكذلك اوربة عند ما تشاء الوصول اليها بطريق برّية او هوائية ، لا تريان مندوحة عن السير على طريقنا (وهذا ما يشرح لنا نوعاً ما فائدة مطار طرابلس). ولم يمكن قطار سيبرية لينتصر علينا في هذا المجال» . وهذه هي النظرية التي عرضناها سابقاً في المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٥٧٧) بعنوان «سورية طريق الهند» . وان التاريخ ، كما يقول المحاضر ، نتيجة الجغرافية في اكثر مظاهره . وهو يستنتج من هذه الملاحظة عبرةً مبتكرة ومفيدة فيقول :«لا يمكن لشعب من الشعوب ان يعيش كأمّة متميّزة فينمو ويستقرّ على طريق من هذه الطرق المهمة التي تستعملها عشرون أمّة ، وبالطبع يشتهيها جميعُ ، الّا اذا كان قويًا بنفسه ، او اذا انضمّ الى شعب قويّ ، او اتحد معه . وهذا ما يشرح لنا ان هذه البلاد لم تعرف ، او لم تكد تعرف ، الّا آنًا بعد آن وبصورة متقطعة ، الاستقلال التامّ . » ويا له من نور ساطع تنشره هذه الملاحظة على المستقبل السياسي في لبنان وسورية ! ولكي نفهم ذلك كل الفهم ، علينا ان نضيف الملاحظة التالية للمحاضر ، قال (ص ١٠) :

« اما من حيث السياسة فان فرنسة لتهتمّ بنا اهتماماً يدفعها الى عدم التخلي عنا ، اللهمّ الا اذا تحوّلت عما هي عليه ، وانها لتعلم الآن حقّ العلم ايّ منافسة تتهيأ لها ، وكم من الدول ترغب فينا ! اما من جهتنا فان لنا ، بصرف النظر عن

الاسباب العاطفية القوية ، مصالح تعادل مصالحها على الاقل ، في التعلق بها .»
ونحن نرى ان هذه هي النتيجة التي يصل اليها جميع اللبنانيين المفكرين الذين لا يغترّون بطنين الالفاظ ، ولا يسكرون بنشوة فصاحتهم وبيانهم !

* * *

وليس السيد شيحا من هؤلاء . فانه بعد ان يبيّن المنافع الجليلة التي ينالها لبنان من وجوده على طريق عالمية ، يكشف عن المضرّات ايضاً فيقول : «ان الطريق اشبه بالساحة العمومية . . . » ولهذا يتهمنا البعض بكوننا سطحيين . . . ثم يتابع بكل جرأة (ص ١١) : «اننا في بلاد تنصرف فوق اللزوم الى الوجهة المادية . لانه يصعب علينا ، الا في ما ندر ، ان نتصوّر تاجراً ، او وسيطاً ، او صاحب نزل ، او ما الى ذلك من اصحاب المهن التي تتطلب الطريق وجودها وتزيد المواصلات في انتشارها ، يصعب علينا ان نرى اصحاب هذه المهن يعملون لمجرّد الخير ، على طريقة السامريّ الصالح . . . ليس لي ان احطّ من شأن هذه المهن النافعة ، الضرورية ، الشريفة دون شك اذا استعملت بشرف . الا انني اشير الى انها خطرة من طبيعتها ، والى انه ، حيث يزداد انتشارها ، على الحكومة واجب اجتماعي قد لا يجب عليها في غير ذلك من الظروف . لان المسألة تتحوّل الى مسألة تهذيبية واخلاقية ، الى مسألة اجتماعية من اجدر المسائل بالاهتمام . »

فان المكسب القريب يبهرنا فيستهوينا ، « فننصرف الى القيام بخدمة مأجورة ، عن غرس شجرة قد تظلل ابناءنا . وعلى هذه الطريقة ، نسير في جميع مآتينا ، فنهمل ، في ابحاثنا ومناظراتنا ، الفلسفة التي هي العمق ، لنتعلق بالبيان والادب وما هما الّا التسطح . »

وان السيد شيحا الذي اظهر كل رغبة في الطرق ، يرى من اللازم ان نتحفّظ في احكامنا بذا الشأن ، فيصرخ (ص ١٢) : « الطرق ! وددت لو كانت اقلّ مما هي في بلادنا ! ووددت لو ظلّت عشرات القرى والمزارع منفردة مختلية تستعيض عن موسيقى ابواق السيارات ، بحفيف اشجارها وخرير مياهها ! »

لان اللبنانيين ، بواسطة كثرة الطرق ، يهجرون قراهم ومزارعهم . وهما ان كثيراً من البلدات الكثيرة السكان ، في ما مضى ، اصبحت ، وقد خلت نصف منازلها ، بسبب الحرب والهاجرة الاميركية ، وبسبب هبوط سكانها الى مدن الشاطئ . فهل يمكننا ان نرى تقدماً في ازدحام الناس في المدن ؟ هو ما يشك فيه المحاضر ، وحق له الشك ، فيقول : « ان ذاك الانتقال لمما يضعف عنصرنا . فان الجبل اعطى آباءنا نسلاً قوياً صالحاً . . . عند ما تصبح حقولنا المهجورة ولا نبات بها الا الشوك والوسج ، عندما يصبح جبلنا الشامخ معروضاً في سوق التجارة وقد عقم واجدب ، عندما يتلاشى حب ارض الضيعة وكنيسة الضيعة امام التعطش الى الذهب ، عند ما نصبح ، في جميع مظاهرنا ، شعباً تاجراً ، عند ذاك نشعر كل الشعور بقوة الكارثة . ولكني اخاف ان يكون شعورنا بعد فوات الحين . »

« ان هذه البلاد ، التي لو فقهت ، لرأت مائة سبب تحملها على القناعة والاكتفاء ، والتي لو عقلت ، لوضعت حداً لاطماعها ولتأوهاتها ، ان هذه البلاد قد اختلت موازنتها فاصبحت عرضة لمزيد الشرور . »

ثم يذكر الخطيب ، بكل اختصار ، لضيق الوقت ، عدداً من الآراء السائرة والاحكام المتداولة دون ان يكون لها مستند قوي او سبب كافٍ ، من ذلك مسألة اللغة : « كأن هذه البلاد ، التي تكلمت ولا تزال تتكلم جميع اللغات تقريباً الحية ، والميتة المحفوظة بفضل العقائد والطقوس ، يمكنها الاقتناع بلغة واحدة مهما كانت جميلة . . . وهناك حكم آخر فاسد ايضاً وهو ذاك الذي يدعو « أدباء وسادة » لا من يفكرون ، بل من يكتبون ويتكلمون ، والذي يُغدق القاب النبوغ والعبقرية على اول قادم ، بشرط ان يتكلم نظماً . وحكم فاسد ايضاً ذاك الذي يجعل لبنان — على رغم ما فيه من اسباب المعاش المختلفة ، منظورة وغير منظورة — بحالة الخطر الداهم مذ قل فيه بيع الانسجة القطنية . »

* * *

بعد هذا الفحص الدقيق المخلص ، اي دواء يرسم المحاضر ؟ فلنصغ اليه (ص ١٣) : « لكي يحافظ لبنان على ميزته الخاصة ، وكيلا يكون سوقاً مشتركة بين الشعوب لا ميزة لها ولا روح ، وكيلا تصبح الطريق ممرّاً للكثير من العادات والآراء الدخيلة ، وحتى لا يحدث بنا ما حدث باهل برج بابل ، علينا ان نتحرّر من الروح الفاسد الذي يبثه بعض النفسيين تحت ستار المساواة ، ومن الروح التجاري الفاسد ايضاً ؛ فنهمل الجهة المادّية في الامور دون ان نجهلها طبعاً ، لان اهتماماتنا المادية لا تقف عند الاقتصاديات والمعاشات وما يلحقها من زيادة ونقصان ، ولا عند الابنية وما يجب لها من اعمال سريعة او بطيئة . علينا ان نتحرّر من كل ما سبق فنكلّم اهل بلادنا ، في اقلّ ما يمكن من الظروف ، عن المال وما يجرّه . بل علينا ان نخاطبهم ، وبطريقة مستعجلة دقيقة ، في شأن تهذيبهم العقلي والخلقي . علينا ان نهتم بالعائلة ، والمدرسة ، وبطبقات الشعب واحدة واحدة ، فندرس روحها ونطّلع على احتياجاتها الحقيقية . علينا ان نحترم العادات والتقاليد ، ريثما نصل بالتدريج الى نظام سياسي واجتماعي واخلاقي اقوى من نظامنا الحالي واثبت . »

وفي عمل الانهاض والتحسين هذا ، يستند السيد شيحا الى المدرسة والتعليم ، ولكن لا الى اي تعليم كان ، وهو يشرح فكرته على الصورة التالية : « علينا ان نعزّز التعليم ونقلّل من تفرّقه ، فنكون ادقّ واصرم واشحّ في توزيع الشهادات . علينا ان نخشى المدرسة الابتدائية اذا لم يكن التهذيب غايتها الجوهرية ، وعلينا خصوصاً ان نخشى ، كما نخشى الطاعون ، اولئك الابتدائيين الذين لا سعة في عقلهم ولا بعد في نظرهم ، وان نخشى ايضاً التثقيف التجاري المحض او النفعي المحض . وعلى عكس ما تقدم ، يلزمنا لزوماً حيوياً ، ان نهتم بدرس الافكار العامّة والتضلّع منها ، وان نهتمّ ، فوق اهتمامنا بالتعليم الفني ، بان نفهم ونقرّ ضرورة التعليم المدرسي الصحيح الذي يستند الى طريقة من التهذيب عميقة ثابتة ، فيسير القلب والعقل الى نضوجهما التامّ . »

وان من الطرافة بمكان ان نرى هذا الصيرفي ، هذا الرجل العملي ، ينادي بتفوّق الثقافة المدرسية على التعليم الفني . وينذر بانه يوم تتفوّق المصالح

الاقتصادية ، في هذه البلاد ، على المصالح الروحية والخُلقية ، يومذاك ، نُصبح مجموعة من رجال قد يكونون اذكياء ، حذّاقاً ، اصحاب اقدام ، اغنياء ، ولكن مستعبدين ؛ نصبح خليطاً من ذوي الانانية ، والاحتيال ، والحقد ، والتخاذل. يومذاك نفقد لبناننا ، اي مدنيّة ذات الف سنة ، وسيطةً ضرورية بين الشرق والغرب ، حافظةً تراث اثينة ورومة على رغم انفصام دام عشرة قرون ؛ نفقد تلك الصلة بين القُطرين اللذين يقتربان احدهما من الآخر يوماً فيوماً بفضل العلم وحذق رجاله ؛ نفقد تقاليدنا الثابتة المتقاربة على اختلاف انواعها ، فنُصبح وقد اضعنا معنى الأمة.» (ص ١٤)

وفي سبيل ابعاد هذا الخطر ، وتحويل هذه المصائب ، يتكل الخطيب على عمل النخب وتأثيرها في الشعب. واولاً يلزمنا نخبة من ارباب التفكير « نخبة تفتش عن الجمال والصلاح، للجمال والصلاح ليس غير ؛ وكما انه يلزمنا سراة من ارباب الارض يستحقون هذا اللقب الشريف فيعيدون الى سكة الفلاحة والى الحقل مرتبتها المهضومة ، ويعيدون الى الفلاح شرفه المغتصب فيقرّونه حولهم في الارض ، يلزمنا سراة من ارباب الفكر الواسع ، والذكاء الحادّ ، والقلب الكبير . »

* * *

هذا وان ما نبسطه بالاختصار لا يبدي الا مظهراً ضئيلاً من تلك الاعتبارات القيمة التي توسع فيها السيد شيحا. فنحث قراءنا على الاهتمام بالمحاضرة نفسها والتأمل بأفكارها ، وهم اذا فعلوا ، لا يضيعون وقتهم سدى !